البعد التداولي في التنظير البلاغي عند أبي هلال العسكري
من خلال كتابه الصناعتين: الكتابة والشعر

The pragmatic dimension in rhetorical theorization of Abu Hilal Al-Shi'r [1]Askari through his book Kitáb al-Sinatayn: al-Kitába wa al-

الدكتور: الطاهر شارف

قسم اللغة العربية-المدرسة العليا للأساتذة ببوسعادة -المسيلة (الجزائر)

taharcharef@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2020/10/29 تاريخ القبول: 2021/02/24 تاريخ القبول: 2021/03/15

ملخص:

يرمي البحث إلى التأكيد على حضور أفكار النظرية التداولية بأكثر أبعادها في الفكر البلاغي عند أبي هلال العسكري من خلال كتابه الصناعتين: الكتابة والشعر، ومحاولة الوقوف على جانب مهم من تنظيره للبلاغة العربية ونقده الكتابة والشعر في التراث العربي، وإبراز توجهاته لبعض المفاهيم التداولية كاستعمال الكلام، وقصدية المتكلم وتوجيه كلامه بحسب المقام وملابسات الخطاب وأطرافه، ورصد ما تيسر من أفكار ومفاهيم سواء ما كان منها واضحا، أو يُفهم بالمثال والإشارة.

الكلمات المفاتيح: التداولية- التنظير البلاغي - القصدية - أفعال الكلام - الاستلزام الحواري - الحِجاج.

Abstract:

The aim of this research is to affirm the presence of the ideas and aspects of pragmatic theory in the rhetorical thought of Abu Hilal Al-Askari in his book Kitáb al-Sinatayn: al-Kitába wa al-Shi'r (The two skills: writing and poetry) in order to present its theoretical contribution to arabic rhetoric and its criticism about writing and poetry of Arab literary heritage. We also show his vision on certain pragmatic notions such as the use of speech, the intentionality of the speaker, the interpretation of speech according to the different situations and the parts of communication. Finally, we note that the

study deals with the concepts of the theme cited in the book or implicitly deduced.

Keywords: pragmatics - rhetorical théorizing - intentionality - speech acts - conversational implicature - argumentation.

مقدمة:

التداولية فرع من اللسانيات يبحث في كيفية استخدام الأدلة اللغوية أثناء عملية التواصل والخطاب، ثم ينظر في هذه العملية ويفسر ويؤول، من ناحيتي المتكلم والكلام؛ والتداولية درس يُعنى بالنظر في مقاصد المتكلّمين وأغراض الكلام من جهة، وفي ظروف الخطاب وملابساته من جهة أخرى؛ لأن المعنى أو الغرض التواصلي المراد لا يتحقق من التراكيب وحدها منعزلة، بل من خلال وقوعها في سياق حالي معيّن، وطرفي خطاب محددين؛ فنُطق المسلم بالشهادتين معاودةً مثلا ليس كنطق من أسلم أول مرة بهما، ونطق المضطر بهما ليس كنطق المختار الحر، ولكل واحدة من هذه أثرها، ولا تفسر دون النظر إلى علاقتها بقائلها، وبمقام القول، وقد أشيرَ إلى العلاقة بين الكلام ومستعمله في تفسير الكلام في أقدم تعريف للتّداولية؛ وهو تعريف تشارلز موريس (Charles Morries) سنة 1938م، الذي رأى فيه أنّ «التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات».[2] فالتداولية تهتم بجوانب عديدة متعلّقة بالخطاب وعناصر الاتّصال (المخاطِب، المخاطَب، الخطاب "الرسالة"، السياق، مقاصد المتكلّم،...)

1- مبادئ ومفاهيم في التداولية:

يعرف (جاك موشلار Jaque Moschller) و(آن روبول Anne Reboul) التداولية بأنها: «دراسة الاستعمال اللغوي المقابلة لدراسة النظام اللساني الذي يعدّ من اهتمام اللسانيات بصفة خاصّة».[3]؛ فهما إذن يقابلان بين جانب الاستعمال الذي هو من اختصاص التداولية والجانب التركيبي الذي يعدّ من اختصاص اللسانيات.

ويجمع الباحثون على أنّ الفلسفة التحليلية هي المحضن الفكري للنظرية التداولية؛ حيث كانت البداية على يد الفيلسوف الألماني غوتلوب فريجيه (Gottlob frégé) (1848- 1925)، وجاء بعده الفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتغنشتاين (Ludwing Wittgenstein) (1889- 1951)

واقتفى أثر سابقه، وأسّس اتّجاها فلسفيا جديدا هو فلسفة اللغة العادية التي تعدّ أحد الاتّجاهات الثلاثة الكبرى التي تفرّعت إليها الفلسفة التحليلية؛ وهذه الاتجاهات هي:[4]

- الوضعية المنطقية: positivisme logique بزعامة رودولف كارناب .
- الظاهراتية اللّغوية: phénoménologie du langage بزعامة أدموند هوسرل .
- فلسفة اللغة العادية: philosophie du langage ordinaire بزعامة لودفيغ فيتغنشتاين.

ويُعد الاتجاه الثالث التيارَ الوحيد الذي يصب في صميم البحث التداولي، ونشأ ضمنه موضوع "أفعال الكلام". و يركز هذا الاتجاه على أن المادة الأساسية للفلسفة هي اللغة وبها تُحل مشاكلها.[5]

اهتم بأفكار " فيتغنشتاين" وتبناها فلاسفة مدرسة "أوكسفورد"، ومنهم على الخصوص (ج.ل. أوستين John Langshaw Austin)، وتلميذه (ج. سيرل John searl.) ومما قام به أوستين تقسيم الجمل إلى وصفية (خبرية)، وجمل إنشائية، وأقر بعد الدراسة والملاحظة بأنّ كلَّ جملة مفيدة مستعملة يقابلها إنجاز لغوي على الأقل.[6]كما اعتبر الجمل الإنشائية أفعالا كلامية؛ ينشئ من خلالها المتكلم وقائع جديدة.

كانت هذه الأفكار وغيرها مما شاع فيما بعد مبادئَ للتداولية استوقفت العلماء والباحثين في علم اللغة الحديث؛ ومن هذه المبادئ: القصدية في الخطاب، سياق الحال، أفعال الكلام، الاستلزام الحواري، الحجاج.

2- تداخل علم البلاغة مع التداولية وتكاملهما:

علوم اللغة متكاملة بحكم ميدان دراستها وواقع إنجاز متغيراتها؛ فهي تشترك في دراسة موضوع واحد هو اللغة والكلام بأدوات متشابهة. والتداولية أحد فروع علوم اللغة، وتشترك مع البلاغة في تركيزهما على واقع استعمال اللغة؛ فهما يلتقيان؛ بل ويتداخلان حينما يتناولان بالدراسة ممارسة الحدث الخطابي في سياقه الخاص، ويعترف الباحثون في اللسانيات الغربية بأنّ علم البلاغة دراسة تداولية؛ فهي تصف عملية حدوث التواصل والتبليغ وتحدد أسسها ومدى التأثير والتفاعل بين أطرافها؛ حيث يرى ليتش (Leitch.v) أنّ «البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ أنها ممارسة الاتّصال بين المتكلم والسامع، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محدّدة للتأثير على بعضهما».[7]وهي رؤية الباحث الألماني (لوسبرغ

Lausberg.h)؛ حين يقول: «البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية؛ يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدّد».[8]

ويقترب هذا التحليل مما ترمي إليه المبادئ التي تنشدها التداولية، كمبدأ التأثير والتفاعل في المواقف الحيوية الخاصة، وغير بعيد من هذا موقف الجاحظ من المراد بالبيان الذي هو أحد علوم البلاغة؛ حيث نجده يحدد مفهومه في قوله: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذاك هو البيان في ذلك الموضع».[9]

وليس هذا وحسب؛ بل إن البلاغيين القدامى، ومنهم الجاحظ، وأبو هلال، وابن قتيبة، والقرطاجني، وغيرهم، كانوا يركّزون على مسألة التأثير في المتلقي ومحاولة إقناعه، وهذا من صميم التداولية، وفي هذا السياق يعتبر محمد العمري أنّ البلاغة المنشودة ضمن العلوم اللغوية الحديثة تتمثل في التداولية، حيث يقول في حديثه عن التأثير في المتلقي وإقناعه، وما تتركه الرسالة من أثر آني: «إنّ هذا البعد هو أحد الأبعاد الأساسية في البلاغة العربية، وهو بعد جاحظي في أساسه. وإنّ تخلي البديعيين عنه في مرحلة لاحقة أدى إلى اختزال البلاغة العربية وتضييق مجالها. وتحظى نظرية التأثير والمقال حالياً بعناية كبيرة في الدراسات السيميائية، ومن ثم الشروع في إعادة الاعتبار إلى البلاغة العربية تحت عنوان جديد: التداولية».[10]

ومما يؤكّد وعي أبي هلال العسكري العميق بهذا المعنى إشادتُه بضرورة الفهم والإفهام وحسن التأثير، وبلوغ الأثر في إنشاء الكلام وتلقيه؛ أي تحقق رسالة النص من توجيه فكري وانطباع جمالي؛ حيث يقول في حديثه عن مفهوم البلاغة: «البلاغة كلّ ما تبلّغ به المعنى قلب السامع، فتمكّنه في نفسه كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن. وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة؛ لأنّ الكلام إذا كانت عبارته رثّة ومعرضه خلقا لم يسمّ بليغا، وإن كان مفهوم المعنى، مكشوف المغزى».[11] فالكلام لا يعدّ -في نظر العسكري- بليغا ما لم يكن مخاطِبا القلب، ومؤثرا في متلقيه بما يشتمل عليه من أساليب إفهام، وصور عرض، وهنا يظهر ربط العسكري بين البلاغة وما تحدثه من آثار في نفوس المتلقّين، وهذا أبلغ ما تصبو التداولية إلى تحقيقه. وكما أن البلاغة والتداولية كليهما يراعيان حال المخاطِب وأسلوب عرض الخطاب فهما بهذا مرتبطان بالنص والموقف؛ حيث لا اعتبار لخطاب بعيد عن مقام إنجازه، أو من دون النظر إليه متكاملا متماسكا.[12]

ومما يؤكده الباحثون المحدَثون أن العلماء والمفكرون العرب قد كان لهم فضل السبق إلى معرفة أصول هذا الاتجاه، يقول الباحث محمد سويرتي: «إن النحاة والفلاسفة المسلمين، والبلاغيين، والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يَذيع صيتُه بصفته فلسفة وعلما، رؤية واتجاها أمريكيا وأوربيا».[13] غير أنّ الدراسات التداولية تجاوزت ما تم التركيز عليه في جزء كبير من البحث اللغوي السابق لظهورها؛ كالتركيز على مكوّنات النظام اللغوي ووصف بنياته، كما تجاوزت ما اهتمت به البلاغة العربية في كثير من مباحثها؛ وهو الجانب المنطقي في الكلام ومدى الصّدق والكذب فيه إلى الاهتمام بالإنجاز وعلاقة الكلام بالواقع الخارجي.[14] وفي هذا الصدد يعرّف مسعود صحراوي التداولية بقوله: «مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصليّة واضحة وناجحة، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية».[15] فهي باختصار «علم استعمال اللغة».[16]

3- نماذج من المبادئ التداولية في التنظير البلاغي عند العسكري:

من المبادئ التداولية التي احتفى بها أبو هلال العسكري، وعلى أساسها كان يُفاضل بين نماذج الكلام وصيغه، ويحدّد بلاغته وفائدته وفاعليته وتأثيره، نجد:

أولا: القصدية في الخطاب

1- قصدية المتكلم

تعني قصدية المتكلم عند عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) "ترتيب المعاني في النفس"، أي أنه ينشئ كلامه ويبني ألفاظه ويرتّبها بحسب غرضه ومراده؛ فهو الذي يختار هذه اللفظة بدل هذه، ويجعلها بجانب هذه، أو يقدمها أو يؤخرها، أو يحذفها أو يصل الكلام أو يفصله... والألفاظ والتراكيب عند الجرجاني يأتي بها المخاطِب وفقا لخدمة المعاني التي يريد تبليغها؛ حيث يقول: «وأنّك تَتوخّى الترتيبَ في المعاني وتُعْمِل الفكر هناك؛ فإذا تَمَّ لك ذلك أتْبَعتَها الألفاظَ وقَفَوْتَ بها آثارها، وأنّك إذا فرَغتَ من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تَجدُها تترتّب لك بحُكم أنها خَدَمٌ للمعاني، وتابعةٌ لها ولاحِقةٌ بها، وأنّ العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالّة عليها في النطق».[17] ومع ما يؤكد عليه الجرجاني من احتفاء بالمعاني فإن العسكري يرى بأنه لا تتحقّق فاعلية الخطاب والتفاعل بين المتكلم

والمخاطَب إلا بالابتعاد عن المبالغة في تدقيق المعاني وتنقيح الألفاظ وتصفيتها وتهذيبها.[18] لما يسببانه من غموض وتعمية، والمتكلّم الحاذق اللبق يراعي كل هذا؛ «فالمتمكّن من نفسه يضع لسانه حيث يريد».[19] وهو بهذا يقدم الاهتمام بالألفاظ على الاهتمام بالمعاني؛ وكلاهما عنده مهم، فهو يرى بأنّ جمال العبارة وصداها موقوفان على انتقاء الألفاظ صفاء، وبهاء، ونقاء، وماء، مع سبكها بإحكام؛ مؤشّر ذلك التأثير والتفاعل، وتحقيق المُراد، ويكفي عنده من المعنى أنْ يكون شريفا، وألاّ يجانب الصواب.[20] وعند كليهما –الجرجاني والعسكري- مقصد المتكلم هو أساس نشأة كل تركيب لغوي.

والقصدية في تحقيق المغزى والتأثير في المستمع يتطلبان -بحسب ما أكده العسكري- إيراد المعاني الشريفة البينة المرامي بألفاظ مألوفة سلسة، «ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهرا، والألفاظ إذا اجترّت قسرا، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه، ولا في غرابة المعنى إلّا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى، وظهور المقصد».[21] ومن مستلزمات صناعة الكلام والحوار وإبداء الرأي: تخيرُ اللفظ، وإعمال الفكر، وراحة البال، وخلاء الذهن، يقول العسكري: «إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك، وتنوّق له كرائم اللّفظ، واجعلها على ذكر منك؛ ليقرب عليك تناولها، ولا يتعبك تطلّبها، واعمله ما دمت في شباب نشاطك؛ فإذا غشيك الفتور، وتخوّنك الملال فأمسك؛ فإنّ الكثير مع الملال قليل، والنفيس مع الضّجر خسيس»[22] وفي هذا الشأن ينقل قول بشر بن المعتمر: « خذ من نفسك ساعة لنشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها لك؛ فإنّ قلبك في تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرق حسنا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل غرّة من لفظ كريم، ومعنى بديع».[23] ولذا فإنه لا فائدة تُرجى من الكلام، ولا يتحقق له مُراد ما لم يقم على مثل ما ذكر العسكري من توجيه وضوابط.

2- قصدية المخاطَب والتأثير فيه "مبدأ التفاعل"

أشار الجاحظ إلى أهمية مراعاة حال المخاطَب ومكانته من خلال نقله لما ورد في وثيقة مشهورة في البلاغة، هي صحيفة بشر بن المعتمر(ت220هـ)؛ حيث ذكر أنه «ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات».[24] وهذا كلام مهم في عمق التداول واستعمال الخطاب، وقد نقل العسكري هذا القول إقرارا منه بمقتضاه.[25] كما أكّد على أن فائدة الكلام لا تتحقّق إلا بمراعاة حال المخاطَب ومكانته؛ حيث يقول: «وإذا كان

موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس؛ فيخاطب السّوقي بكلام السّوقة، والبدويّ بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه؛ فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب».[26] وهذا ما أشار إليه الجاحظ من قبل كذلك حيث قال: «وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسَهم في طبقات؛ فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح، والسميح والخفيف والثقيل وكله عربي، وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا».[27] وأن يقصد المتكلم بخطابه التأثير في المخاطَب ومراعاة حاله ذاك هو معيار التواصل، وأساس تحقيق المراد، وفي هذا ينقل العسكري عن حكيم الهند قوله: «أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، متخيّر اللفظ، لا يكلّم سيد الأمّة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السّوقة، ويكون في قواه التصرف في كل طبقة».[28]

والتأثير في المخاطب هو معيار حصول التواصل وتحقق الفائدة المرجوة من الكلام؛ فعلى قدر استجابة المتلقي اقتناعا أو رفضا نحدد مؤشر نجاعة الخطاب، وهذا مما أشار إليه أبو هلال في قوله: « فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة، والجزالة، والسهولة، والرّصانة، ... وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يردّه، وعلى السّمع المصيب استوعبه ولم يمجّه؛ والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البشع... والسمع يتشوّف للصواب الرائع وينزوي عن الجهير الهائل... والفهم يأنس من الكلام بالمعروف، ويسكن إلى المألوف، ويصغي إلى الصواب، ويهرب من المحال...»[29] فاستيعاب الكلام، وتقبُّله، والإحساس بصدقه وصوابه، غايات تؤكد تحقق تداولية الخطاب.

3- مراعاة الأدوات غير اللغوية في الخطاب

مما يتحقق به التبليغ والتواصل من غير الكلمة والتركيب أدوات كثيرة تكلم عنها اللغويون.[30] يهمنا منها في هذا المقام الإشارة والنصبة؛ لبروزهما في أداء التواصل والتفاعل والتداول والدلالة على الأشياء من غير اللجوء إلى النطق والإفصاح، وقد ذكر الجاحظ أضربًا عديدة للإشارة فقال: «فأما الإشارة فباليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف، وقد يتهدد رافع السوط والسيف، فيكون ذلك زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا.... والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط...وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة في أمور يُسِرّها الناس من بعض، ويخفونها من الجليس

وغير الجليس ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص... هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصّوت... وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان ».[31]

وأما النصبة فهي كل ظاهر للعيان، دالّ بوجوده، مُحيل على غيره، معتبر بأسباب مرتبط بمسببات، يقول الجاحظ: «وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق وجامد ونام ومقيم وظاعن، وزائد وناقص؛ فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق؛ فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان، ولذلك قال الأول سل الأرض فقل من أجرى أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا، وقال بعض الخطباء أشهد أن السموات والأرض آيات دالات وشواهد قائمات، كلّ يؤدّي عنك الحجة ويعرب عنك بالربوبية».[32] فالمخلوقات بمظهرها وحالها على عجمتها ناطقة بعظمة خالقها.

ومما تُعنى به التداولية البحث في كيفيات استعمال الأدوات غير اللّغوية في الخطابات والأحاديث، ومن هذه الأدوات الإيحاء والإشارة، وترصُّد فرص التأثير والتأثر، وهذا ما سعت البلاغة إلى تحقيقه واعتبرته من مقوماتها، يقول العسكري: «وقال إبراهيم الإمام: حسبك من حظّ البلاغة ألّا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع. وقال الهندي أيضا: البلاغة وضوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة».[33]

ومما تبنى عليه تداولية الخطاب من أدوات مهمّة تضمن الوصول إلى عملية تواصل بناءة، وينبغي أن يتسلح بها الخطيب ما ينقله أبو هلال قائلا: «وقال أبو داود: رأس الخطابة الطّبع، وعمودها الدّربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ».[34] فالابتعاد عن التكلّف والمغالاة، والدربة والمراس، والإلمام بالعلوم المكملة والمجاورة لعلم البلاغة كالاطلاع على نصوص الأدب في مظانها، والتمكن من قواعد نحو العربية، كل هذه تزيد من قوة الخطيب وفاعلية خطبته، كما أنّ استعمال الغريب يفسد الكلام ويجلب ملل المتلقي، ويقلل من أثر التواصل، بخلاف استعمال المألوف وإن كان متداولا فهو أداة مهمة في تحقيق الإثارة والانتباه، «وكان المفضّل يختار من الشعر ما يقلّ تداول الرواة له، ويكثر الغريب فيه؛ وهذا خطأ من الاختيار؛ لأنّ الغريب لم يكثر في كلام إلّا أفسده، وفيه دلالة الاستكراه والتكلّف».[35] ومن الأدوات غير اللغوية المطلوبة كمعيار لتداول الخطاب قصر فكرة نصّه وتقارب أجزائه واتّصالها.[36] وعلى الخطيب أن يبتعد عن تعاطي السلوك المنافي لتحقيق فاعلية الخطاب والتأثير في المخاطَب بكل أشكاله؛ يقول العسكري: «وقال بعض الأوائل: تلخيص المعاني رفق، والتشادق

من غير أهله بغض، والنظر في وجوه الناس عيّ، ومسّ اللّحية هلل، والاستعانة بالغريب عجز، والخروج عمّا بني عليه الكلام إسهاب».[37]

هذا ونجد العسكري في كتابه "الصناعتين" قد مكث طويلا في معالجة مسألة ما ينبغي أن يتصف به الصانع المخاطِب؛ شاعرا أو كاتبا، وما يلزمه أن يتسلح به من أدوات لغوية وغير لغوية لإحكام الصنعة، وإصابة المقصد، وتحقيق فاعلية الكلام وتأثيره في المخاطب، وتكلم عن ذلك في أكثر أبواب الكتاب.[38]

ثانيا: الفعل الكلامي

يعد الفعل الكلامي من أهمّ مبادئ اللسانيات التداوليّة؛ لأنه يتعلّق بجانب إنجاز الكلام وتأثيره في المتلقّي انطلاقا من بنيات اللغة، وهذا هو الذي بنى عليه (أوستين) نظريّة في كتابه الموسوم بـ " How to do things whith words" (كيف نصنع الأشياء بالكلمات)، وأسّس بذلك لنظرية أفعال الكلام التي استأنفها من بعده تلميذه (سيرل). والفعل الكلامي هو تصرف أو عمل ينجز بالكلام، و« يُعدّ نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية كالطلب والأمر والوعد والوعيد، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي، كالرفض والقبول».[39] وقد قسم أوستين الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام:[40]

- **فعل القول** أو فعل اللفظ؛ وهو ما يحققه تركيب لغوي مفيد وسليم ومحدد، موجه إلى متلقّ محدد، على وجه مخصوص.

- **الفعل الإنجازي**، أو الفعل المتضمّن في القول أو الغرضي؛ وهو عمل ينجز بقول كالإدلاء بالشهادة أو الوعد.

- **الفعل التأثيري**، أو الفعل الناتج عن القول، يحققه ما يترتب عن الفعل الإنجازي من أحاسيس أو أفكار.

ومما يظهر في أقوال العسكري، ويتعيّن فيه للمتأمل ملامح وأفكار ذات رؤى تداولية تشير إلى المبدأ الثاني (مبدأ **الفعل الكلامي**) نجد:

1- فعل القول (Acte locutoire) أو فعل اللّفظ (التركيب)

المراد به إطلاق ألفاظ في جمل مفيدة مؤثرة ينجم عنها تصرف أو انفعال، ذاتِ بناء سليم (صوتيا وتركيبيا، ودلاليا). وليكون للكلام عمل وإفادة واستجابة يذهب العسكري إلى ما هو أعمق من سلامة ما ذكرنا فيشترط في الجمل -إضافة إلى ذلك- أن تُختار ألفاظها بحسب المقام، وأن تكون متماسكة بحيث يُنبئ أول الكلام فيها عن آخره، وتراعى فيه نفسيات المخاطبين؛ ويحقِّق ما يسمّى في اللسانيات الوظيفية التداولية بالكفاية النفسية، حيث يقول: «وتخيّر الألفاظ، وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام؛ وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه، وإن اتّفق له أن يكون موقعه في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه، وأحقّ بالمقام والحال كان جامعا للحسن، بارعا في الفضل؛ وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبيك عن مصادره، وأوّله يكشف قناع آخره، كان قد جمع نهاية الحسن، وبلغ أعلى مراتب التمام».[41]

2- الفعل المتضمّن في القول (Acte illocutoire) أو الفعل الغرضي الإنجازي

يعني الفعل المتضمّن في القول الفعلَ المنجز حقيقة بقول ما، وهذا الصنف من الأفعال هو الأهم والمقصود من النظريّة التداولية، ويسمي (أوستين) الأفعال المتضمنة في القول بـ"القوى الإنجازيّة"، ومن أمثلتها: التحذير، الوعد، الأمر، الشهادة في المحكمة... وهي مقاصد ضمنية لا يمكن إدراكها من ظاهر القول، وتحكمها قوانين الخطاب وظروفه كسياق الحال وغيره.[42] وتشمل متضمنات القول مفهومين آخرين هما: الافتراض المسبق (Pré-supposition) والأقوال المضمرة (les sous-entendus)؛ والافتراض المسبق هو تواصل لساني يعتمد على خلفية لغوية مسبقة، غير مصرح بها يشترك فيها طرفا الخطاب.[43] ومثالها: مطالبة طالب معين بإظهار الإجابة؟ فإنّه مما يفترض مسبقا من هذا القول أنّ الطلبة كُلفوا بحل تطبيقات. أما الأقوال المضمرة (التضمين) فترتبط بمقام الخطاب وخصوصيات الحديث وملابساته، بخلاف الافتراض المسبق الذي يحتكم إلى المعطيات اللغوية. ومثالها: قولك: إنّ الجو بارد. المراد بهذا القول تحدده ملابسات الخطاب وظروفه؛ فقد يقصد من إطلاق هذا القول طلب مضاعفة اللباس، أو طلب التنقل في مركبة، أو طلب استعمال الماء الدافئ أثناء الوضوء، أو غيرها. فالجملة كما لاحظ "بول غرايس Grice" قد تخرج عن معناها الحرفي إلى معنى استلزامي، أي أنّ «بعض الأقوال تبلغ أكثر مما تدلّ عليه الكلمات التي تتشكل منها الجمل، إن هذا الجزء من دلالة الأقوال التي تنأى عن شروط حقيقة الجملة يطلق عليها تضمينا Implicature، بعضها يرتبط بالتعبير اللساني، وبعضها الآخر تثيره العلاقة بين القول والسّياق، فكل قول يثير جزئيا أقوالا أخرى يضمها أو يخلقها بوعي أو بدونه»[44]؛ أي أنّ القول في حمولته الدلالية يخرج عن

المعنى الحرفي إلى معنى استلزامي يفهم من سياق الخطاب. وقد توجهه كلمة مقصودة بعينها؛ من ذلك اختيار التعبير بمرضعة بدل امرأة في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾(الحج: 2) يقول أبو هلال العسكري: « ولو قال تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بيانا حسنا وبلاغة كاملة، وإنما خص المرضعة للمبالغة؛ لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفتها بحاجته إليها وأشغف به لقربه منها ولزومها له، لا يفارقها ليلا ولا نهارا، وعلى حسب القرب تكون المحبة والإلف».[45] فلو عبّر بكلمة أم أو والدة أو امرأة لم يتحقق المقصود، ولم نجد ما وجدناه من فعل لهذه الكلمة بالذات؛ أي مرضعة. ولما صُور هذا المشهد المهول بمثل ما صُور.

لقد أشار البلاغيون العرب إلى ما يكون أكثر إفصاحا وأداء للغرض مما تتضمّنه الكلمات، ظاهرا أو مؤولا إيحاء بالمعنى المقصود أو إشارة، بالشعر أو السجع أو الخطبة أو الرسالة، بل وذهبوا إلى أكثر من ذلك؛ فها هو العسكري ينقل عنهم إقرارهم بأنه من متضمنات التداول والتأثير السكوت، وأحيانا الاستماع، ويبرر المقام التي تكون فيه أنجع؛ حيث يقول: «قال إسحق بن حسان: لم يفسر أحد البلاغة تفسير ابن المقفّع؛ إذ قال: البلاغة اسم لمعان تجرى في وجوه كثيرة؛ منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا، ومنها ما يكون خطبا، وربّما كانت رسائل. فعامّة ما يكون من هذه الأبواب؛ فالوحي فيها والإشارة إلى المعنى أبلغ، والإيجاز هو البلاغة. فقوله: "منها ما يكون في السكوت"؛ فالسكوت يسمّى بلاغة مجازا، وهو في حالة لا ينجع فيها القول، ولا ينفع فيها إقامة الحجج. إما عند جاهل لا يفهم الخطاب، أو عند وضيع لا يرهب الجواب، أو ظالم سليط يحكم بالهوى، ولا يرتدع بكلمة التقوى. وإذا كان الكلام يعرى من الخير، أو يجلب الشّرّ فالسكوت أولى؛ كما قال أبو العتاهية: ما كلّ نُطق له جواب...».[46] نجد العسكري على علمه بالعربية وفنونها يعضد ما يرى بأقوال أعلام آخرين ليؤكد نظره، ففي قوله هذا ينقل عن إسحق بن حسان وابن المقفع، وأبي العتاهية، وكل واحد عَلم في فنّه، وله مظان أدبه، وكلهم يرى أنّ الكلام يبلغ مراده مع الإيجاز واللمحة والقصد تضمّنا وإشارة، وربما مع السّكوت، ويبرر لذلك بما يقبله الواقع والمنطق.

ومما لا يظهر كتابة أو نطقا خلفية التبليغ اللّغوية البلاغية وكفاءة المخاطِب، وقدرته على التأثير والتواصل والإفهام؛ فهي من الوسائل الهامة في تحقيق تداولية الخطاب، وإسهامه في تغيير الفكر أو السلوك، «وإنما يدلّ حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم منشئه».[47]

ومثال ذلك معطيات السياق غير اللغوية، فهي أساسية أيضا في توجيه رسالة الخطاب وتحقيق مراده.

3- الفعل الناتج عن القول (Acte perlocutoire) أو الفعل التأثيري

يمثل الفعل الناتج عن القول النتائج والآثار المترتّبة عن الفعل الإنجازي؛ أي أننا عندما نقول شيئا فإنّ ذلك يترتّب عليه حدوث بعض الآثار على أفكار المخاطَب أو إحساساته أو سلوكاته وتصرّفاته.[48]

وللتأثير بالقول في فكر المستمع ومخاطبة أحاسيسه ومشاعره، وتوصيل الرسالة واضحة كان نظر العلماء العرب -ومن خلالهم العسكري- عميقا في وضع استراتيجيات للتبليغ والتواصل؛ منها الابتعاد عن التعقيد في التركيب وتعمّد جودة الرصف وحسن التأليف والترتيب، يقول أبوهلال: «وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا، ومع سوء التأليف ورداءة الرّصف والتركيب شعبة من التّعمية، فإذا كان المعنى سبيّا، ورصف الكلام رديّا لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليه طلاوة. وإذا كان المعنى وسطا، ورصف الكلام جيّدا كان أحسن موقعا، وأطيب مستمَعا؛ فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا في المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا، وإن اختلّ نظمه فضمّت الحبّة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا».[49] وفي التراث العربي كثير من نماذج التراكيب التي يظهر فيها التأثير القوي على مشاعر المتلقي مهما كانت مكانته وارتفع شأنه، من ذلك ما نقله العسكري من وصف أحد رعية المأمون؛ حيث «قال ليحيى بن أكثم: صف لي حالي عند الناس. فقال: يا أمير المؤمنين! قد انقادت لك الأمور بأزمّتها، وملّكتك الأمة فضول أعنّتها؛ بالرغبة إليك والمحبة لك، والرّفق منك، والعياذ بك، بعدلك فيهم، ومنّك عليهم، حتى لقد أنسيتهم سلفك، وآيستهم خلفك. فالحمد لله الذي جمعنا بك بعد التقاطع، ورفعنا في دولتك بعد التواضع.

فقال: يا يحيى، أتحبيرا، أم ارتجالا؟ قال: قلت: وهل يمتنع فيك وصف، أو يتعذّر على مادحك قول، أو يفحم فيك شاعر، أو يتلجلج فيك خطيب؟»[50] كيف لا يكون لهذا الكلام تأثير في مشاعر الأمير واستجابة وتفاعل مع حال رعيته؟ فمن شدّة تأثّره بالقول إيجابا سأل عن إنتاجه أهو بعد تفكير وتحبير، أم بداهة وارتجالا! وبالمقابل قد يكون تأثير القول على المشاعر سلبا باستعمال لفظ يبغضه المستمع أو يتشاءم منه، وفي هذا يقول العسكري : «وينبغي ألّا يذكر في التشبيب اسما بغيضا؛ فقد أنشد جرير بعض ملوك بني أميّة:[51]

وتقولُ بوزعُ: قدْ دببتَ على العصا! ** هَلاّ هَزئْتِ بغَيرنَا يا بَوْزَعُ

فقال له الملك: أفسدتها ببوزع. وقد يقدح في الحَسن قبح اسمه، ويزيد في مهابة الرجل فخامة اسمه، ولهذا تكنّى البحتري بأبي عبادة، وكان يكنّى أبا الحسن؛ وشهد رجل عند شريح وكان الرجل يكنّى أبا الكويفر، فردّ شهادته، ولم يسأل عنه.

وسمع عمر بن عبد العزيز رحمه الله رجلا يكنى أبا العمرين، فقال: لو كان عاقلا لكفاه أحدهما.

وأتى ظالم بن سرّاق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليستعمله فردّه، وقال: أنت تظلم وأبوك يسرق؛ وظالم هذا جدّ المهلّب بن أبى صفرة ».[52] لقد كان تركيز علمائنا على الفعل التأثيري وأثر القول في نفسية المخاطَب بارزا؛ ومن ذلك إقرار العسكري بأن الأثر في مشاعر الممدوح يكون أقوى إذا وصف فيه الشاعر فضائل النفس ودلائل رجاحة العقل، ولم يكتف بوصف الجانب الحسّي، حيث قال: «ومن عيوب المديح عدول المادح عن الفضائل التي تختصّ بالنفس: من العقل، والعفّة، والعدل، والشجاعة، إلى ما يليق بأوصاف الجسم: من الحسن، والبهاء والزّينة، كما قال ابن قيس الرقيّات في عبد الملك بن مروان:

يأتلقُ التّاج فوق مفْرقِه ... على جبينٍ كأنّه الذّهبُ

فغضب عبد الملك، وقال: قد قلت في مصعب:

إنما مصعب شهابٌ من اللّ ... هِ تجلّت عن وجهه الظّلماءُ.

فأعطيته المدح بكشف الغمم، وجلاء الظّلم؛ وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه؛ وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذّهب في النضارة».[53]

وينقل العسكري مؤيّدا - وهو يتحدث عن أهمّية الأمثال السائرة والأشعار النادرة وتفضيلها عن غيرها من الخطابات في توجيه فكر المتلقّي والتّأثير في أحاسيسه، وربما تغيير وجهة نظره إلى الحياة كلية- قولَ من سبقه: «لا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي والأيام من مَثل سائر، وشِعر نادر. ومما يفضل به غيره أنه ليس يؤثّر في الأعراض والأنساب تأثير الشعر في الحمد والذم شيء من الكلام؛ فكم من شريف وَضع، وخامل دنيء رَفع؛ وهذه فضيلة غير معروفة في الرسائل والخطب، ومما يفضلهما به أيضا أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، إذا قام به منشد على رءوس الأشهاد، ولا يفوز أحد من مؤلّفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة، والعوارف السنيّة، ولا يهتزّ ملك، ولا

رئيس لشيء من الكلام كما يهتزّ له، ويرتاح لاستماعه؛ وهذه فضيلة أخرى لا يلحقه فيها شيء من الكلام».[54]

ثالثا: الاستلزام الحواري (L'implication conversationnelle)

الاستلزام الحواري هو أحد أبرز المفاهيم التداولية، ويعني أن الخطابات تحمل معاني ظاهرة صريحة (القوة الإنجازية الحرفية للكلام)، وأخرى خفية ضمنية تحددها علاقة القول بقائله، وعلاقة القول بسياق الحال أو المقام (القوة الإنجازية المستلزمة). وقد كان هربرت بول غرايس (H .P.Grice) أول المنظرين لهذا المفهوم، وأقر بأنه ينبغي أن يلتزم المتخاطبون بقواعد ليتم الحوار والتواصل. وانطلاقا من هذا يتعاونون على تحقيق هدف الحوار، وسمّى غرايس هذا المبدأ بمبدأ التعاون.[55] ولهذا المبدأ أربع قواعد، هي:[56]

1- قاعدة الكم، أو القدر؛ تعني وجوب إفادة المخاطب على قدر الحاجة دون زيادة.

2- قاعدة الكيف؛ تؤكد على التثبّت في نقل المعلومة الصحيحة.

3- قاعدة العلاقة أو الملاءمة؛ لا تخرج عن الموضوع، أي ملاءمة المقال للمقام.

4- قاعدة الجهة أو الطريقة؛ وتؤكد على دقّة الخطاب ووضوحه وترتيبه وإيجازه.

كل هذه القواعد ترمي إلى تنظيم عملية التخاطب، وتحقيق الصراحة والمقصود من الحوار.

ومما يُحدث التواصل ويحقق التبليغ والإقناع، ويُسهم في توجيه المعنى وتحديده زيادة على الدلالة الخاصة بالألفاظ (حمولة المعنى الحرفي للكلمات، أو القوة الإنجازية الحرفية) وكان مما أقره العسكري وغيره من علماء العربية -إثراء وتتمة للقواعد السابقة- حسنُ استعمال المتكلم اللفظ وتخيّره، وإجادة النسج والتأليف، وحسن استقبال المتلقي؛ كل هذه تعتبر من (المنجز بالقوة) يقول أبو هلال: «وقال العتابي: الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح؛ وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخّرا، أو أخّرت منها مقدّما أفسدت الصورة وغيّرت المعنى؛ كما لو حوّل رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحوّلت الخلقة، وتغيّرت الحلية. وقد أحسن في هذا التمثيل وأعلم به على أنّ الذي ينبغي في صيغة الكلام وضع كلّ شيء منه في موضعه ليخرج بذلك من سوء النظم».[57] كما أكد علماؤنا على أنه ينبغي لتحقيق الكفاية اللغوية التداولية

الاجتماعية عدمُ مخالفة المتعارف عليه من عادات المجتمعات وتقاليدها أثناء الخطاب، يقول العسكري: «ومن عيوب المعنى مخالفةُ العرف وذكر ما ليس في العادة كقول المرار:

وخال على خدّيك يبدو كأنّه ... سنا البدر في دعجاء باد دجونها.

دعجاء: سوداء ودجونها: سوادها. والمعروف أن الخيلان سود أو سمر، والخدود الحسان إنما هي البيض، فأتى هذا الشاعر بقلب المعنى».[58]

ويجب الانتباه إلى ما تثيره الأقوال بحسب السّياق والمقام؛ أي وضعية الخطاب وخصوصية الحديث، والحالة النفسية للمخاطِب، ومكانة المخاطَب؛ «فإنّ النفوس لا تجود بمكنونها، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود مع الرّغبة والمحبّة. وينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات؛ فتجعل لكلّ طبقة كلاما، ولكلّ حال مقاما، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات، واعلم أنّ المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال؛ فإن كنت متكلّما، أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد، فتخطّ ألفاظ المتكلمين، مثل الجسم والعرض والكون والتأليف والجوهر، فإنّ ذلك هجنة».[59] وهذا ما أشارت إليه قاعدة العلاقة أو الملاءمة.

ومما تمثله قاعدة الكم عند العسكري ثنائية الإيجاز والإطناب؛ حيث يؤكد على ضرورة مراعاة الموضع -المقام وحال المخاطِب والمخاطَب- الذي يليق بكل منهما، ويحسن فيه ليكون الخطاب فعالا، ويتحقق أثره، حيث يقول: «ووجدنا الناس إذا خطبوا في الصّلح بين العشائر أطالوا؛ وإذا أنشدوا الشّعر بين السّماطين في مديح الملوك أطنبوا؛ والإطالة والإطناب في هذه المواضع إيجاز، وقيل لقيس بن خارجة: ما عندك في حمالات داحس؟ قال: عندي قرا كلّ نازل، ورضا كلّ ساخط، وخطبة من لدن مطلع الشّمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتّواصل وأنهى عن التقاطع. فقيل لأبي يعقوب الخريمي: هلّا اكتفى بقوله: "آمر فيها بالتواصل" عن قوله: "وأنهى عن التقاطع"؟ فقال: أو ما علمت أنّ الكناية والتعريض لا تعمل عمل الإطناب والتكشيف».[60]

رابعا: الحِجاج

يعني الحجاج الجدل والمخاطبة والحوار والاستدلال، ويرمي إلى التبليغ والإقناع وتوجيه الفكر، ويعرفه شاييم بيرلمان (Chaïm Perleman) بأنه «دراسة التقنيات الخطابية التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك

التسليم».[61] كما يعرفه تلميذه ميشال مايير (Michel Meyer) بأنه «دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيّه»؛[62] أي أنّ الحجاج عنده يقوم على الصّريح الذي يُحقّق بالإنجاز الحرفي للكلمات، والضمنيّ الذي يُحققه حال المخاطِب ومقام الخطاب بإيحاء الحروف. ويقوم الحِجاج عادة على المحاججة والإقناع، بل يأتي لأجل ذلك، ومن أدواته وطرقه ممّا تطرق إليه العسكري: الإطناب في البيان، وتناسب أجزاء الكلام، وحسن المطالع والابتداءات، وتخير اللفظ اليسير المعبر، والوقوف عند مقاطع الكلام، والابتعاد عن الغلو في الوصف وسوء الاستعارة:

1- الإطناب في البيان: يقول أبوهلال عن فضل الإطناب لأجل البيان والإقناع: «قال أصحاب الإطناب: المنطق إنما هو بيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشّفاء لا يقع إلّا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشدّه إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامّة إلّا بالاستقصاء؛ والإيجاز للخواصّ، والإطناب مشترك فيه الخاصّة والعامة، والغبي والفطن، والريض والمرتاض؛ ولمعنى ما أطيلت الكتب السلطانية في إفهام الرعايا».[63] لذا ينبغي أن يُستعمل الإيجاز في موضعه؛ أي مع الخواص، والإطناب في موضعه؛ أي فيما يتطلب بيانا وإحاطة، وكلٌّ مهمّ مُحتاج إليه.

2- تناسب أجزاء الكلام: المحافظة على تناسب أجزاء الكلام من مستلزمات الحوار؛ فهو مما يضفي عليه طابعا جماليا يستميل المخاطَب، ويؤثر فيه، يقول العسكري: «وينبغي أن تجعل كلامك مشتبها أوله بآخره، ومطابقا هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلفقها؛ فإنّ تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام؛ ولا يكون ما بين ذلك حشو يستغنى عنه ويتمّ الكلام دونه».[64]

3- حسن المطالع والابتداءات: يقول العسكري عن حسن الابتداءات وقبحها: «قال بعض الكتّاب: أحسنوا معاشر الكتّاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان. وقالوا: ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله؛ مما يتطيّر منه، ويستجفى من الكلام والمخاطبة والبكاء، ووصف إقفار الديار وتشتيت الألّاف ونعي الشباب وذمّ الزمان؛ لا سيّما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني. ويستعمل ذلك في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة؛ فإن الكلام إذا كان مؤسسا على هذا المثال تطيّر منه سامعه... وقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكي على أبي نواس ابتداءه:

أربعَ البلى إن الخشوع لَبادَ... عليك وإنّي لم أخُنكَ ودادي».[65]

ويقول العسكري أيضا عن فضل الابتداء الحسن: « وإذا كان الابتداء حسنا بديعا، ومليحا رشيقا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء من الكلام؛ ولهذا المعنى يقول الله عز وجل: آلم. وحم.

وطس. وطسم. وكهيعص؛ فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد، ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده والله أعلم بكتابه».[66] فحسن الابتداء دليل بيان ومدعاة إلى حسن الاستماع والإقبال، وأبعد عن التشاؤم والتطير.

4- تخير اللفظ اليسير المعبر؛ وذلك بأن يعبر عن فكرته بألفاظ سهلة، وبأسلوب مباشر وموجز لا يرهق فكر المتلقي في الفهم والاقتناع، ويكون كلامه مطابقا لمقتضى الحاجة، ويراعي ما ينتج عنه من أثر في نفوس المتلقين وعقولهم، يقول العسكري: «وقال المأمون لبعضهم: من أبلغ الناس؟ فقال: من قرّب الأمر البعيد المتناول، والصّعب الدرك بالألفاظ اليسيرة، قال: ما عدل سهمك عن الغرض. ولكن البليغ من كان كلامه في مقدار حاجته، ولا يجيل الفكرة في اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ، ولا يكره المعاني على إنزالها في غير منازلها، ولا يتعمّد الغريب الوحشيّ، ولا الساقط السّوقيّ».[67]

5- الوقوف عند مقاطع الكلام: التأنّي في الكلام وتقطيعُه؛ بالتوقف عند نهايات الجمل له وقع على السمع، وأثر في الفهم، ودليل اهتمام بالمخاطَب، وعن هذا يقول العسكري: «وقال الأحنف بن قيس: ما رأيت رجلا تكلّم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام، ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص رضي الله عنه، كان إذا تكلم تفقّد مقاطع الكلام، وأعطى حقّ المقام».[68]

6- الابتعاد عن الغلوّ في الوصف وسوء الاستعارة: ترفض قواعد الحوار والمحاجة الغلو في الوصف بما يزيد عما يتطلّبه التداول ومقام الخطاب، يقول أبو هلال عن عيوب الغلو: «ومن عيوب هذا الباب أن يخرج فيه إلى المحال، ويشوبه بسوء الاستعارة، وقبيح العبارة؛ كقول أبي نواس في الخمر:[69]

تَوهّمتُهـــا في كأسهـــا فكأنمـــا ... توهّمتُ شيـــئا ليس يدركُ بالعقـــلِ

وصفراءَ أبقى الدهرُ مكنونَ روحها ... وقد مات من مخبورها جوهرُ الكل

فما يرتقى التكييفُ منها إلى مدى ... تُحدُّ به إلّا ومن قبـــــله قبـــــلُ

فجعلها لا تدرك بالعقل وجعلها لا أول لها، وقوله: "جوهر الكل" و "التكييف" في غاية التكلف، ونهاية التعسف. ومثل هذا من الكلام مردود، لا يشتغل بالاحتجاج عنه له، والتحسين لأمره، وهو بترك التداول أولى؛ إلا على وجه التعجب منه ومن قائله».[70]

وعن حسن الاستعارة يذكر العسكري في ثنايا حديثه عن مفهومها وأهميتها، وما تُحدثه في نفس السامع: «وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة».[71]

من كل ما سبق يمكننا القول بأنّ أبا هلال العسكري قد تطرق في كتاب الصناعتين لكثير من القضايا التي تناولها الفكر اللغوي التداولي المعاصر، وجعل لها من واقع الاستعمال اللغوي الفصيح شواهد بنى عليها أفكاره البلاغية، ورؤاه البيانية؛ فقد تناول مقاصد المتكلمين، وحال المتلقين ووضوح الرسالة التواصلية، وظروف الخطاب ومقامه، ومدى تفاعل كل هذه العناصر أثناء الاستعمال وتأدية التبليغ والتواصل. كما تعرض لها ببيان ما يجب أن تكون عليه، ونبه إلى ما قد يحول بينها وبين تحقيقها المرادَ من الخطاب المتميز بأدق عبارة وأشرف معنى، وأسهل أسلوب وأوجز طريق، وبإخراج في أبهى حلة؛ حيث يعبر عن مهارة المخاطِب ويستهوي المخاطَب سامعا وقارئا، ويستميل مشاعره، و يقوِّم سلوكه، ويوجه فكره.

المصادر والمراجع

1. أحمد المتوكل: **اللسانيات الوظيفية**، مدخل نظري، منشورات عكاظ، 1989م.
2. الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت255هـ): **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط7، 1418هـ، 1988م.
3. جاك موشلار وآن روبول: **التداولية اليوم**، علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2003م.
4. جرير (جرير بن عطية الخطفي، ت 114هـ): **ديوان جرير**، دار بيروت، بيروت، لبنان، 1406هـ- 1986م.
5. جيلالي دلاش: **مدخل إلى اللّسانيات التداولية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون- الجزائر، 1992م.
6. صلاح فضل: **بلاغة الخطاب وعلم النص**، سلسلة عالم المعرفة، مطبعة السياسة، الكويت، العدد 164، 1992م.
7. عبد السلام عشير: **عندما نتواصل نغير**، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، 2006م.
8. عبد الله صولة: **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007م.
9. عبد الله صولة: **في نظرية الحجاج**، دراسات وتطبيقات، دار مسكيلياني، تونس، ط1، 2011م.
10. عبد الهادي بن ظافر الشهري: **استراتيجيات الخطاب**- مقاربة لغوية تداوليّة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

11. العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، ت نحو395هـ): **الصناعتين: الكتابة والشعر**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1419هـ.
12. فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداوليّة، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1987م.
13. فيليب بلانشيه: **التداولية من أوستين إلى غوفمان**، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007م.
14. **محمد العمري: البلاغة العربية**، أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2010م.
15. محمد سويرتي: اللغة ودلالاتها، تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب، الكويت، مج28 ،ع3 ، يناير/مارس2000م.
16. محمد عكاشة: **النظرية البراغماتية اللسانية (التداولية)**، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013م، ص91، 92؛ وينظر: العياشي أدراوي: **الاستلزام الحواري في التداول اللساني**، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2011م.
17. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005م.
18. Jaque Moschller- Anne Reboul: Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Edition Seuil,1994.

الهوامش

1- The arabic title « Kitáb al-Sinatayn: al-Kitába wa al-Shi'r » literally means « Book of the two industries: writing and poetry » and the functional equivalent of the title in this context is «The two skills: writing and poetry».

2- فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداوليّة، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1987م، ص8.

3- Jaque Moschller- Anne Reboul: Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Edition Seuil,1994, p17.

4- ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005م، ص22.

5- ينظر: نفسه، ص23.

6- ينظر: جاك موشلار وآن روبول: **التداولية اليوم**، علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2003م، ص31.

7- صلاح فضل: **بلاغة الخطاب وعلم النص**، سلسلة عالم المعرفة، مطبعة السياسة، الكويت، العدد 164، 1992م، ص97، 98.

8- نفسه، ص97.

9- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت255ه): **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط7، 1418ه، 1988م، 1/ 76.

10- **البلاغة العربية**، أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2010م، ص287.

11- أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، ت نحو395ه): **الصناعتين: الكتابة والشعر**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1419ه، ص10.

12- ينظر: أحمد المتوكل: **اللسانيات الوظيفية**، مدخل نظري، منشورات عكاظ، 1989م، ص35.

13- **اللغة ودلالاتها**، تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب، الكويت، مج28 ،ع3 ، يناير/مارس2000م، ص30، 31.

14- ينظر: عبد السلام عشير: **عندما نتواصل نغير**، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، 2006م، ص71.

15- التداولية عند العلماء العرب، ص5.

16- ينظر: نفسه، ص17.

17- **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، تحقيق: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت، ط1، 2000م، ص99.

18- ينظر: الصناعتين: الكتابة والشعر ، ص19.

19- نفسه، ص54.

20- ينظر: نفسه، ص57، 58.

21- نفسه، ص 60.

22- نفسه، ص 134.

23- نفسه، ص 134.

24- الجاحظ: البيان والتبيين، ص138، 139.

25- ينظر: الصناعتين: الكتابة والشعر ، ص135.

26- نفسه، ص29.

27- البيان والتبيين1/ 144.

28- الصناعتين: الكتابة والشعر، ص19.

29- نفسه، ص57.

30- من ذلك ما ذكره الجاحظ في قوله: «وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد؛ أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال». البيان والتبيين1/ 76.

31- البيان والتبيين1/ 77، 78، 79.

32- نفسه1/ 81.

33- الصناعتين: الكتابة والشعر ، ص16.

34- نفسه، ص58.

35- أبو هلال العسكري: نفسه، ص3.

36- ينظر: نفسه، ص43.

37- نفسه، ص3.

38- وبخاصة "الباب الثاني" المعنون بـ: في تمييز الكلام جيده من رديه ونادره من بارده والكلام في المعاني. في فصله الأول. و"الباب الثالث" المعنون بـ: في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ. مستشهدا على ما يراه ويدعو إليه بأمثلة من الواقع اللغوي. ونشير هنا إلى أن الملامح التداولية منثورة في كل ثنايا الكتاب.

39- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص40.

40- للتفصيل ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص42؛ وينظر: أوستين: **نظريّة أفعال الكلام العامّة** (كيف تنجز الأفعال بالكلمات)، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 1991م، ص100؛ وينظر: محمود أحمد نحلة: **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص68.

41- الصناعتين، ص141.

42- ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص23.

43- ينظر: جيلالي دلاش: **مدخل إلى اللّسانيات التداولية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون- الجزائر، 1992م، ص34.

44- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص47.

45- الصناعتين: الكتابة والشعر، ص365.

46- نفسه، ص14.

47- نفسه، ص58.

48- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: **استراتيجيات الخطاب**- مقاربة لغوية تداوليّة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص156، 157.

49- الصناعتين، ص161. يوضّح العسكري المقصود بحسن الرصف والتأليف، وأهمية اتباع المعهود المتداول من نماذج كلام العرب قائلا: «وحسن الرّصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام، ولا يعمّي المعنى؛ وتضمّ كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها. وسوء الرّصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها». الصناعتين، ص161.

50- نفسه، ص41.

51- جرير (جرير بن عطية الخطفي، ت 114هـ): **ديوان جرير**، دار بيروت، بيروت، لبنان، 1406هـ- 1986م، ص268.

52- الصناعتين، ص152.

53- نفسه، ص98.

54- نفسه، ص137.

55- ينظر: فيليب بلانشيه: **التداولية من أوستين إلى غوفمان**، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007م، ص84.

56- ينظر: محمد عكاشة: **النظرية البراغماتية اللسانية (التداولية)**، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013م، ص91، 92؛ وينظر: العياشي أدراوي: **الاستلزام الحواري في التداول اللساني**، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2011م، ص99.

57- الصناعتين، ص161، 162.

58- نفسه، ص96، 97.

59- نفسه، ص135.

60- نفسه، ص192، 193.

61- عبد الله صولة: **في نظرية الحجاج**، دراسات وتطبيقات، دار مسكيلياني، تونس، ط1، 2011م، ص13.

62- عبد الله صولة: **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007م، ص37.

63- الصناعتين: الكتابة والشعر ، ص190.

64- نفسه، ص141، 142.

65- نفسه، ص 431. البيت مطلع قصيدة لم أجدها في ديوان أبي نواس.

66- نفسه، ص 437.

67- نفسه، ص 438.

68- نفسه، ص 438.

69- الأبيات الثلاثة لا توجد في ديوان أبي نواس.

70- نفسه، ص 363، 364.

71- نفسه، ص269. ويعرف العسكري الاستعارة بقوله: «الاستعارة: نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه». الصناعتين، ص268.